الأصولية وانقطاع التواصل
جدلية العنف والدين في التوراة والتلمود

قصي الحسين(*)

مما لا شكّ فيه، أنّ اليهودية اليوم، تحمل في طويّتها بذوراً أصولية متطرّفة؛ قلّما يعرفها أيّ فكر ديني في أية رسالة دينية، سماوية كانت أم وثنية، وذلك يعود لما نسج في الفكر اليهودي والعقيدة اليهودية من أوهام وأحقاد وضغائن يندر وجودها في فكر ومعتقدات أي شعب من الشعوب.

فالرسالة الدينية بغضّ النظر عن مصدرها الوضعي أو السماوي، تتوّخى عادة سعادة الناس في الحياة وبعد الممات، وهي تقود مفكريهم وتوجّه أفكارهم باتجاه ما ينفعهم وينفع أبناء جلدتهم، ولا تقودهم إلى المحْرقة حيث يكتب لهم المصير الأسود، من خلال سوء عشرتهم لغيرهم وسوء علاقاتهم معهم، وسوء توجّههم في مناحي الحياة بجملة عامة.

الخطاب التوراتي المعاصر

ومن هنا يعجب المرء وهو يتابع قراءته المتأنّية للفكر اليهودي، من خلال وقوعاته في الخطاب التوراتي المعاصر، وذلك لما يجد من طروحات دينية أقلّ ما يقال فيها، إنّه لا يمكن أن تكون السماء مصدراً لها بحسب ادّعاءات المبشّرين والمروّجين لها.

فالتوراة المعاصرة والتي تمثّل شريعة اليهود اليوم وكتابهم المقدّس، لا تسمو بالبشرية إلى مملكة السماء، بقدر ما تدعوهم لإقامة مملكة واسعة وقوية على الأرض. وهذه المملكة، يجب أن تكون مرهوبة الجانب يخشاها الضعفاء، دون أن تشكّل ملاذاً آمناً لهم، أو ملجأً لنفوسهم العطشى إلى التحرّر والانعتاق من أشكال القهر والعبودية على حدّ سواء.

(*) أستاذ في الجامعة اللبنانية.

فالمملكة التي تتحدّث عنها التوراة المعاصرة، وتدعو الشعب اليهودي لإقامتها هي مملكة صهيون، وقد تلبّس دعاتها وحرّاسها وقادتها بالدين اليهودي، بهدف إقامة دولة إسرائيل وتوسيع رقعة نفوذها، والعمل بصورة متواصلة على إشباع غرائز قادتها في التوسع والاستيطان داخل أراضي الأمم المجاورة بالقوة حيناً وبالإرهاب حيناً آخر.

لهذا كنّا نرى كيف تتبيّن الحركة الدينية اليهودية الملتبسة، عن صور وأشكال لحركات سياسية عنصرية طاغية، شيئاً فشيئاً. فالحركات السياسية اليهودية، هي التي كانت تنشىء المزاعم والمعتقدات والأفكار في عقول ونفوس اتباعها، فتخدعهم من جهة وتقوّي ما في غرائزهم من حقد وكراهية على الشعوب المعاصرة والمجاورة لهم من جهة أخرى. والحركات السياسية اليهودية الطاغية، هي التي عملت على تشويه كتاب **التوراة** المنزل الذي تحدّث عنه القرآن الكريم، وعمدت إلى تحريف محتواه، فأبدلت ما فيه من حقائق، بما بدؤوا يزعمون من أباطيل وأكاذيب وأضاليل، لا تنطوي على ذي لبٍ حصيف، ولا يقبل بها إلا أصحاب الغايات وصغار النفوس ممن يعيشون في فلكهم أو يقعون تحت تأثيراتهم السياسية والفكرية المختلطة.

التزوير ووقوعات التطرف

ومن هنا نجد كيف يندفع أصحاب الحركات السياسية اليهودية القدماء في أكبر عملية تزوير للتوراة ومضمونه الذي ذكره القرآن الكريم، بحيث حُشي بأشكال وألوان التطرف العرقي والديني، موقظاً الغرائز، داعياً إلى العنف ومباشرة الآخرين بشتى أشكال الاضطهاد والتآمر، وجعلهم وجهاً لوجه مع الفئات الأخرى يناصبونهم العداء بصورة سافرة للغاية. وكل ذلك يتم أوّلاً، من خلال التوراة المعاصرة والمتداولة والتي أضفوا عليها طابع القداسة، ليس عند اليهود وحسب وإنما عند النصارى أيضاً، لأنّه يمثل العهد القديم كما يزعمون، وثانياً، لأن **التوراة** غدت كتاب المسيحية المقدس من الألف إلى الياء مع الإنجيل، بالرغم من امتلائه بأشكال التطرف وصور العنف المختلفة.

فالتوراة المعاصرة تمثل نداءً سياسياً معاصراً بقناع قديم، يسوّغ عودة اليهود إلى أرض الميعاد ويحرض عليها معاً في آن. ويسوّغ أيضاً امتلاكهم لأرض كنعان، وذلك بجعل الدعوة إلى العودة، دعوة إلهية تجسد إرادة إلهية وحقاً دينياً موعوداً به من اللّه لليهود ولأحفادهم من بعدهم، ولو تمّ الوصول إلى ذلك عن طريق العنف وطرد الجماعات وقتل الصغار والعجّز والنساء والإيقاع بالأسرى دون رأفة. ولأنّ هذا النداء ورد في نصوص توراة موسى، فقد أصبح الكتاب المقدّس لليهود والمسيحيين، بالرغم من أنه يجسّد أحلام ومطامع الصهيونية المعاصرة التي تواجه أخطارها اليوم على نحوٍ استيطانيٍّ دموي تدميري للحضارة، يعبث بقوانين المجتمع الدولي ويزعم بوعدٍ توراتيٍّ دينيٍّ، من اللّه لإبراهيم، منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

والواقع أنّ التوراة الموسومة بالقداسة مليئة بدعوات الحبّ والبغض، على غير عادة الدعوات السماوية. فاللّه في التوراة يرضى على هذا الشعب؛ لأنه الشعب اليهودي هو شعب الله المختار، وهو يغضب على ذلك الشعب.. لأنه يمثل الآخر، فيحرمه ويهزمه ويذيقه ألوان الهلاك. وفي الوقت نفسه ينعم على اليهود وينصرهم ويقف إلى جانبهم في كرههم الدائم للآخرين..

أناشيد حاقدة

ونحن نجد أيضاً، بعض ملامح هذه التعصبية الحاقدة والمتطرّفة في جملة الأناشيد الدينية التي تملأ التوراة المعاصرة، وفي جملة الصلوات الطقسية والمزامير التي تتلى على القربان المقدس في ما يسمى بالقداس الإلهي. ففي المزمور الواحد والخمسين من سفر المزامير لداود، والذي يتلى عادة في القداس: هناك دعوة سافرة إلى الإحسان إلى صهيون وإلى بناء أسوار أورشليم، وقد تنبأ المسيح بنقضها حجراً حجراً. وهناك ذكر أيضاً للمذابح والعجول: «أحسن برضاك إلى صهيون. وإن أسوار أورشليم حينئذٍ يقربون على مذابحك العجول»[1].

إن امتلاء التوراة بالأساطير التي تروّج إلى دعاوى العنف المختلفة[2] التي تمارس على الآخرين، والتي تظهر أيضاً في بعض الأناشيد الدينية، كانت موضع عناية من كثير من علماء الغرب الذين يشتغلون بعلم الاستحاثة، وهو علم استخراج ما في باطن الأرض من مطمورات. حتى إن «موتغارت» وهو واحد من هؤلاء العلماء الأصلاء، يقول إن الأبحاث الأثرية برهنت على أن أكثر الأساطير التوراتية غير صحيحة[3].

ومن هنا، نقول: إن ما ورد في التوراة، وخصوصاً في العهد العتيق، من شرائع ومزامير وأمثال وأناشيد وملاحم وأساطير وخرافات، تسوّغ العنف وتدعو إليه، ليس هو وحياً على الإطلاق، وإنما هو أكتوبات متقدمة سابقة، لها أصولها في مدونات بابل وسومر وكنعان وأوغاريت ومملكة إيبله/تل مرديخ. وقد حُرّفت جميع هذه الأصول وكُفّتت بالعنف والتطرف لتتلاءم مع الدعوة السياسية للفكر اليهودي، ومنحت قداسة التوراة الأولى المذكورة في القرآن الكريم، حتى تكتسب في نفوس الأجيال المتديّنة عظمة الدين البريء، والذي هو براءٌ منها.

إنّ الدعوة السياسية، تكاد تكون طاغية في نصوص التوراة المعاصرة، وهي تفشو بالأوهام وتنكأ الجراح وتؤذي الآخرين، لأنها تحرّض عليهم دون أن تحرص على

(1) سفر المزامير لداود. المزمور 51.
(2) راجع: بروتوكولات حكماء صهيون. تحقيق محمد خليفة التونسي (القاهرة، 1951): البروتوكول الثالث والعشرون، ص 163.
(3) سفر اشعيا: فصل 29، عدد 2، حيث هناك إشارة إلى اتصال العبرية بالكنعانية.

كرامتهم أو كرامة الشعب اليهودي نفسه.

فإله التوراة يقول لشعبه الخاص مثلاً أي اليهود: «إن جميع الأرض التي ترى، لك أعطي، لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات[4]. كل أرض كنعان ملكٌ لك أبدياً. وأجعل تخومك من بحر سوف (البحر الأحمر)[5] إلى بحر فلسطين. ومن البرية إلى النهر، فإني أسلّم إلى أيديك سكان الأرض، فتطردهم من أمام وجهك[6].. لا تقطع لهم عهداً، ولا تأخذك بهم رحمة[7].

تحريض على التطرف

وفي الفصل نفسه يحرّض التوراة على التطرف في معاملة الآخرين، ويدعو اليهود لإلقاء الرعب في نفوس الناس وصبّ جام غضبهم على الفئات الوادعة الآمنة المطمئنة، حتى تترك أرضها وديارها وممتلكاتها تحت وطأة الذعر والخوف، وتفرّ من أمام جماعة اليهودية السياسية، فيكون الظفر بما خلّفوه وراءهم. وهذا ذروة الطغيان السياسي والفكري، والمتجسّد بصورة عسكرية في حملات القتل والتدمير وإحراق الأرض حتى تكون نظيفة تماماً من ناسها.

ففي التوراة مثلاً: «لا يقف إنسان في وجوهكم، فإن الربّ إلهكم يُلقي ذعركم ورهبكم على كل الأرض التي تطؤونها كما وعدكم». «وكل موضع تطؤه أخامص أقدامكم، يكون لكم من البريّة ولبنان، من النهر، نهر الفرات إلى البحر الأقصى يكون تُخمكم»[8].

وتبلغ الدعوة التوراتية ذروة عنفها في الفكر اليهودي، حين تحرّض الجماعة على استباحة بلاد الأمم والشعوب واستحلال دمائهم وأموالهم ونسائهم. ويظهر «يهوه» إله قبيلة يهودية غازية حاقدة، فيدعو جميع أبناء قبيلته إلى سفك الدماء وقتل الناس وإبادة الشعوب من غير اليهود واغتصاب نسائهم وأموالهم وممتلكاتهم: «بنو الغرباء يبنون أسوارك، وملوكهم يخدمونك.. تنفتح أبوابك دائماً. لا تغلق نهاراً ولا ليلاً. ليؤتى إليك بغنى الأمم، وتحضر إليك ملوكهم. لأن الأمة والمملكة التي لا تتعبّد لك تهلك. والأمم تخرب خراباً.. يقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغربة حرّاثيكم وكراميكم. أما أنتم فتدعون كهنة الربّ.. تأكلون غنى الأمم وبمجدهم تفتخرون»[9].

---

(4) سفر التكوين: فصل 15، عدد 15 ـ 18.
(5) سفر التكوين: فصل 13، عدد 15.
(6) سفر الخروج: فصل 23، عدد 31 ـ 32.
(7) تثنية الاشتراع: فصل 11، عدد 5؛ وفصل 11، عدد 24.
(8) تثنية الاشتراع: فصل 1، عدد 7.
(9) سفر أشعيا: فصل 60، عدد 10 ـ 11 ـ 12؛ وفصل 61، عدد 5 ـ 6.

مكتوبات التوراة المعاصرة

والواقع أنّ التطرف اليهودي فكراً وممارسة، يعود في جذوره الأولى إلى مكتوبات التوراة المعاصرة. وهذه المكتوبات تطوي مكتّمات إرهابية قاتلة حصلت في التاريخين: القديم والمعاصر على حدّ سواء. فدعاوى التوراة المعاصرة بجميع أشكال وألوان عنفها، هي مصدر التفجر الحقيقي في حياة جماعة اليهودية السياسية منذ نشوئها وحتى اليوم. ولهذا فنحن لا نستغرب ما ورد في سفر يشوع وهو يلحّ إلحاحاً مباشراً على القتل والفوضى والاستهتار: «بقيت أرض للإمتلاك كثيرة جداً. كل بقاع الفلسطينيين، وكل أرض الكنعانيين، إلى تخوم الأموريين، وأرض الجبليين وجميع لبنان جهة مشرق الشمس من بعل جاد حتى جبل حرمون إلى مدخل حماه، كل سكان الجبل من لبنان إلى مياه مسرفوت. كل الصيدونيون، سأطردهم من وجه بني إسرائيل؛ وكل جبل حرمون وكل باشان ـ الجولان إلى «سلكة»[10].

من خلال الوقوف على التعاليم الدينية عند اليهود، نجد كيف أن إله التوراة المتداولة اليوم في طقوس العبادة عند هذه الجماعة، يعلّم شعبه المختار الخاص به، العداء للشعوب، ويثير فيهم حَميّة الجاهليّة والروح التعصّبية المقيتة، وأشكال التمييز العرقي وألوان العنصرية البغيضة. يقول يهوه إله التوراة: «أتّخذكم لي شعباً، وأكون لكم إلهاً. أنا يهوه إلهكم الذي ميّزكم من الشعوب.. إياك قد اختار الربّ إلهك، لتكون لي شعباً أخصّ من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض.. لقد واعَدَك الربُّ أن يجعلك مستعلياً على جميع القبائل.. بالوجوم إلى الأرض، يسجدون لك ويلحسون غبار قدميك».

وتتجلّى في هذا الخطاب التوراتي روح الاستعلاء العنصري والنهج الذي يُحرص على اتّباعه عند اليهود من أجل إذلال الشعوب. وتتفشّى رائحة الكبرياء والصلف في جوانب هذا النص، حيث تظهر فئة اليهود على سائر الفئات البشرية، ويلذّ لها استعبادهم واتخاذهم خدماً لها.

وإذا كان الخطاب التوراتي يحرّض على هذا النهج الاستعلائي المقيت الذي يميّز أمّة اليهود عن غيرها من الأمم، فإنّ الخطاب القرآني ترتفع فيه نبرة التواضع التي تؤاخي بين الناس وتجعلهم يندفعون لخدمة بعضهم البعض من أجل خير الإنسانية جمعاء، لا من أجل فئة المسلمين دون غيرهم من الناس. ففي القرآن الكريم، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ولا تصعّر خدّك للناس، ولا تمشِ في الأرض مرحاً. إن الله لا يحبّ كلّ مختال فخور﴾[11] (صدق الله العظيم).

فأين هذه الأخلاق الإسلامية التي تتجلّى في تعاليم القرآن الكريم من الأخلاق

(10) سفر يشوع: فصل 13، عدد 1 إلى 13.
(11) القرآن الكريم: سورة لقمان، 18/31.

اليهودية التي تعلّم اليهود الصلف والتعالي والكرباء، والتي تتفشّى في أكثر من فصل من فصول التوراة التي يتداولها جماعة اليهود اليوم.

بل أين هذه الأخلاق اليهودية التعصبية من الأخلاق المسيحية التي تعكسها تعاليم السيد المسيح في الأناجيل. أين رذيلة الكبرياء الممقوتة من فضيلة التواضع الأثيرة المحبوبة في الإنجيل: «من رفع نفسه وُضع، ومن وضع نفسه رُفع.. من اتضع ارتفع.. من واضع نفسه يرتفع»[12].

تعاليم الأصولية

وقلّما تخلو تعاليم موسى وأساطير التوراة، من دعوة إلى التقتيل، والحضّ على اغتصاب أملاك الغير، والتحريض على العنف والحرب والتخريب والتدمير، وإراقة الدماء، وإثارة الفتنة وبثّ الكراهية والبغضاء والشحناء بين مختلف الأمم والشعوب دون استثناء، ناهيك عن عمليات الحضّ الدائمة، لإشاعة روح العداوة والتنازع والسعي إلى الحرب بين الجماعات وحتى بين أفراد أية جماعة من هذه الجماعات.

وإذا كانت جذور العنف في الفكر اليهودي، قد وضحت لنا من خلال تعاليم التوراة المعاصرة التي يتداولها جماعة اليهود اليوم، فلا بدّ لنا بالتالي من تلمّس بعض جذور العنف الأخرى والتي تكاد تطغى على تعاليم التلمود/الكتاب الآخر عند اليهود والذي لا يقلّ أهمية عن كتاب التوراة.

أدبيات التلمود

فالتلمود هو كتاب تعليم الديانة اليهودية وآدابها. وقد دوّن عصر ما بعد التوراة. وفي عرف علماء اليهود الحكماء/ الحاخاميم، أنّ التلمود هو حافظ التوراة لأنه مليء بشروح وتفاسير التوراة.

ولدى إلقاء نظرة سريعة على «المشناه» وهي تعني «المعرفة» أو القانون الثاني الشفهي المنقول عن موسى والذي تداوله علماء الناموس في أواخر القرن الثاني الميلاد، نجد أنها أي «المشناه» هي أول ما دوّن اليهود لأنفسهم بعد التوراة. وهي تشتمل على الأحكام والقرارات والأحاديث والخرافات وأقاصيص السحر وبعض الأساطير والأمثال والحكم التي نجدها في كتب الحكمة عند الهنود واليونانيين والبابليين. ويعتقد أنها دوّنت بعد قرن من هدم هيكل أورشليم على يد «طيطوس».

وبالإضافة إلى «المشناه» الذي يقع في متن التلمود، هناك «الجمارا» الذي هو تفسير للمتن وشرح له. ويرجع تاريخ جمع «الجمارا» وتدوينه إلى القرن الرابع الميلادي. ومن الملاحظ أن الفريسيين وغيرهم من حكماء اليهود هم الذين ابتدعوا

(12) إنجيل متى: فصل 22، العدد 12.

بعض القوانين التلمودية، وزعموا أنها مروية عن موسى، بالرغم من أنها لا توجد في التوراة المكتوبة. فهي إذن القانون الملفوظ إلى جانب التوراة وهو القانون المكتوب عند اليهود.

ويظهر الفريسيون وكأنهم طائفة من غلاة الفكر اليهودي، انشقّوا عن باقي اليهود مدّعين أنهم أفضل منهم. وقد أنكروا بعث الموتى وبرزوا في صورة المتزمتين المغالين المتطرفين، فكانوا من أتباع الحاخام «عزرا» المتوفى عام 444 قبل الميلاد والذي يأتي في المقام الثاني بعد موسى. وقد تميّزوا بالقسوة على الشعب وبالاستعلاء والرياء على حدّ سواء[13].

وتنضح لغة التلمود وآدابه وتعاليمه بالسُّباب وكيل الشتائم والطعن بالسيّد المسيح وبأتباعه لأنهم صادروا على اليهود «مسيحهم» وزوّروه وقالوا إنه أتى واتبعوه، وهو لم يأت بعد بحسب مزاعمهم.

ويبلغ حقد التلمود في تعاليمه الدينية مبلغاً عظيماً، إذ نجده يذكر أن «المسيح» هو ابن الجندي «يوسف بنديرا» الذي حبلت به مريم قبل زواجها كما يدجّلون ووصفوه بأنه أحمق، مجذوم، غشاش بني إسرائيل. واعتبروا تعاليمه مليئة بالآثام، كما عدّوا تلاميذه ملاحدة وكفاراً، ومكان العبادة الذي يمارس فيه تعبّده، مليئاً بالقاذورات وأتباعه كلاب.

ففي نصّ تلموديّ نقرأ التالي: «مسيّا» أي المسيح، لمّا يأتي ما لم تنقرض الشعوب غير اليهودية. والسلطة على الشعوب غير اليهودية هي من نصيب اليهود فقط». وتبلغ تعاليم التلمود ذروة عنفها وتطرّفها، حين تدعو إلى اضمحلال العالم وأخذ اليهود السيادة على المدن. وتبشر بحرب طويلة الأمد يشيب لهولها الأطفال وتزهق أرواح ثلثي العالم. كما تبشّر بأنه بعد هذه الكارثة التي تمحق الناس، لا يظلّ غير اليهود، الذين يستولون على نعمة الأرض، خصوصاً بعد استئصال الشياطين من بني البشر الآخرين (أي غير اليهود).

شروحات التلمود

تمثّل شروحات التلمود، الخطوط الفكرية الأساسية التي تنتظم الديانة اليهودية المستقاة من التوراة. وهي إذ تنضح بالعنصرية والهمجية، والبذاءة الاخلاقية وأشكال الكراهية والحقد على جميع الناس من غير اليهود، فلئن النصوص التوراتية، هي مصدر ثقافة الشرّاح والمفسرين اليهود. وهذه الثقافة الفكرية التوراتية، تعمل على إذابة السياسي في الديني، مما يجعلنا بالتالي أمام حملة سياسية معادية، يحتويها نصّ ديني.

ففي شروح تلمودية: «اليهود من جوهر الله. كما أن الولد من جوهر أبيه. وكما أنّ

(13) الأب طانيوس منعم: خطر اليهودية على النصرانية، ص 52.

الإنسان يعلو البهيمة، كذلك اليهود هم أرفع من شعوب الأرض، لأن نُطفة الغرباء كنطفة الحصان».

وبرأينا أن مثل هذه التعاليم التلمودية، هي التي كانت تغذّي عقول مفكري اليهود الصهاينة الجدد أمثال هرتزل، الأب الروحي للصهيونية، وبن غوريون أحد أبرز مفكريهم. فبهدي من تعاليم التوراة والتلمود، يقول هرتزل: «إن جنسنا أكثر فاعلية في كل شيء من باقي شعوب الأرض». وهذه دعوى في غاية التطرف، تنضح منها العنصرية والشوفينية البغيضة وهي نفسها الدعوى التي نهض على أساسها مجتمع النازية، وكان سبباً في دمار العالم من جهة وتأخير الإنسانية أعواماً وأعواماً من جهة أخرى.

أما بن غوريون فيقول متأثراً أيضاً بالفكر اليهودي المتطرّف، ومتحدثاً عن نسل اليهود «المقدس»: «إنني أؤمن بتفوقنا الخلقي والفكري، بحيث، يستخدم كنموذج لإصلاح الجنس البشري». وهذا الاجتهاد الذي يشفّ عن عقدة استعلاء أصيلة في الفكر اليهودي لدى بن غوريون، أوحت به كما نرى تعاليم التلمود المتطرفة والتي تتحدث عن الغرباء الذين هم «الجوييم والمينيم»، أي الأجانب الأمميين غير اليهود[14]، فتقول عنهم «إنهم كفرة، بهائم أنجاس، مخلوقون من طينة حيوانية نجسة».

والنصوص التلمودية بما هي شروح وتفاسير لما ورد في التوراة من بيان ديني وفكري للجماعة اليهودية، هي التي أسهمت إسهاماً كبيراً بتغذية أعراق التطرف في عقول وأفكار اللاهوتيين الذين كانوا من أعمدة الهيكل السياسي في الوقت الذي كانوا فيه أيضاً من أعمدة الهيكل الديني عند اليهود. فنحن لا ننسى أن رجال الدين اليهودي، كما كانوا شرّاح التوراة ومدوّني التلمود، فقد كانوا أيضاً حرّاس التسلط في الأنظمة السياسية التي انتدبوا إليها كعاملين وعملاء، على حدّ سواء. ومن هنا فقد كانوا يجمعون في شخوصهم وظيفة السياسي ووظيفة رجل الدين معاً[15].

إبادة النصارى

إنّ استقراء جميع تعاليم التلمود، تبيّن لنا عمق التطرف في الفكر الديني اليهودي. فهي تحمل في ثناياها، دعوة مباشرة إلى إبادة الآخرين واستباحة أموالهم وأعراضهم: «من ينكر التعليم اليهودي وخصوصاً النصارى فهؤلاء تتحتم إبادتهم على بكرة أبيهم.. وإذا كان التنكيل بهم غير مستطاع، فالوشاية بهم واجبة.. ممتلكات النصراني هي ممتلكات لا مالك لها. مثل رمال البحار. وأول يهودي يستولي عليها عنوة، يكون مالكها الأصيل». وتبلغ الدعوة إلى التطرف أقصى درجات عنفها حين تنادي هذه التعاليم

---

(14) مجلة **شؤون فلسطينية**، العدد 3، ص 35، تموز/يوليو 1971.

(15) المرجع نفسه، ص 40.

التلمودية فتقول: حطّم الصالح من بين الأجانب. إسرائيل لا تدوم بدوام الشعوب الأجنبية». فالحياة إذن، حق حصري من اللّه لإسرائيل وحدها، دون غيرها من الشعوب[16].

إن السياسة حين تستلهم الدّين تتأثر به وبتعاليمه، إن سلباً أو إيجاباً. فبقدر ما تكون التعاليم الدينية داعية تطرف وتمييز وعنصرية، بقدر ما تنعكس مثل هذه الدعاوى عن الحياة السياسية التي تستلهمها أو التي تصدر عنها، خصوصاً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الشرائع والقوانين والأفكار التي تعيش في ظل دولة دينية، تتأثّر بدين هذه الدولة بالذات، أكثر مما تتأثر بالحياة المدنية التي تنحو نحوها أمم الأرض قاطبة في أي عصر من العصور وفي أي صقع من أصقاع المعمورة.

الصهيونية/زعزعة الأساسات

والصهيونية كحركة سياسية ناهضة على أساس من الفكر الديني اليهودي، استلهمت منه تطرفه ومغالاته في كثير من المبادىء العامة التي تعمل:

1 ـ على إعلانها في المؤتمرات.

2 ـ على إحقاقها داخل الكيانات السياسية المتعاونة معها.

والصهيونية كحركة سياسية دينية متطرفة، تعلن عن نفسها بنفسها، من خلال الإعلان عن مبادئها وجملة الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها:

«1 ـ وحدة الشعب اليهودي ومركزية إسرائيل في الحياة اليهودية.

2 ـ تجميع الشعب اليهودي في وطنه التاريخي، أرض إسرائيل، عن طريق الهجرة من البلدان كافة.

3 ـ تقوية دولة إسرائيل القائمة على رؤيا أنبياء اليهود ومفهومهم للعدالة والسلام.

4 ـ الحفاظ على هوية الشعب اليهودي من خلال تنمية التربية اليهودية والتعليم العبري وتعزيز القيم اليهودية، الروحية والثقافية.

5 ـ حماية الحقوق اليهودية في كل مكان»[17].

وإذا تجاوزنا الفقرة الأولى والثانية من هذا الإعلان التي نادت به الحركة الصهينية في مؤتمرها الذي عقدته في القدس عام 1968، فإننا سنجد في الفقرات الثلاث الباقية، دعوى يهودية قديمة، تستلهم تعاليم التوراة والتلمود، خصوصاً في ما يتّصل بالتربية والتمسك بالقيم وحماية الحقوق على ضوء رؤيا أنبياء اليهود.

ضدّية الغرباء

وبالعودة إلى تعاليم التلمود التي تشرح نصوص التوراة المقدسة عند اليهود، نجد

(16) محمد خليفة التونسي: الخطر اليهودي، دار الكتاب العربي، 1951، ص 15.

(17) الجيروزاليم بوست، الملحق الأسبوعي، العدد رقم 493، 6/4/1970.

كيف أنّ هذه التعاليم تدعو إلى التطرف وفرض الإرادة بالقوة على الشعوب القديمة: يجب ضرب الغرباء (الجوييم) ضربة قاصمة، لأن واحدهم قد يكون متحدراً من شعوب الكنعانيين السبعة»[18].

أمّا شعوب الكنعانيين السبعة التي يعنيها شرّاح التوراة في التلمود، فهم الأموريون والكنعانيون والجرحاشيون والحوييون واليبوسيون والحثيون والفرزيون. فالكنعانيون هم عرب ساحل البحر المتوسط ومنهم الفينيقيون. والعموريون هم عرب الداخل. أما الحثيون فهم من أصل آري لا من أصل عربي سامي. والشعوب الآرية هي شعوب الهند أوروبية أي الهنود والإيرانيون في آسيا والشعوب الأوروبية في أوروبة[19].

هكذا نجد شرّاح التوراة من اليهود التلموديين، يقودون أقسى حملة على شعوب العالم القديم بلا استثناء، ويحرضون على قتلهم دون هوادة، إذ لا خلاص للمتطرفين اليهود إلا باستئصال جميع الشعوب غير اليهودية، الذين يشعرون أنهم يزاحمونهم على مصادر الماء والكلأ من جهة، وعلى النفوذ السياسي والعسكري من جهة، بغض النظر عن موقف العدالة السماوية المتناقض مع أعمال التطرف البغيضة.

ففي التلمود أيضاً: «من العدْل أن تقتل الجاحد بيدك وجميع الأجانب بلا استثناء»[20]. إنها دعوة لقتل الناس جميعاً. دعوة تلمودية، تؤكّد مبلغ التطرف الذي يعشش في نفوس التلموديين والتوراتيين، حيث لا تجد أية مساحة للتسامح أو أية فرصة للعفو والتساهل، أو أية دعوة للتعايش والتآخي على شروط من المحبة الإنسانية الجامعة.

وبقدر ما يبيح التلمود قتل الآخرين بسبب أو بدون سبب، فإنه يحذّر من قتل اليهود، ويعتبر أن «من يقتل نفساً من إسرائيل، فإن الله يحاكمه كما لو أنّه قتل العالم بأسره».

إن دعوى التطرف في الفكر اليهودي يمكن لنا أن نتلمّس بصماتها القوية في جميع الأفكار الدينية التعليمية، التي كان يعلمها أبناء التوراة المعاصرة ومبتدعو التلمود وحكماء صهيون الفريسيون، للأجيال اليهودية عبر الأزمنة الطويلة في تاريخهم القديم والمعاصر.

العنف ضد المرأة

فالتوراة مثلاً اعتبرت المرأة بأنها «أمرّ من الموت. وأنّ الصالح التقي هو الذي ينجو منها. بحسب الرؤى اليهودية، فالمرأة كانت للسبي. وهي تباع وتورث. وللآباء أن

(18) الاب طانيوس منعم: **خطر اليهودية الصهيونية**، (نشر خاص بدون تاريخ) ص 58.
(19) **العهد القديم**، تكوين: فصل 15، عدد 20.
(20) في تقاليد اليهود أنّ الجاحد الذي يعينه التلمود يتمثّل في السيد المسيح واتباعه.

يؤجروا أبناءهم لموعد وأن يبيعوا بناتهم القاصرات بيع الرقيق، وأن يقتلوهن. كما أن الفتاة كانت مملوكة لأبيها قبل زوجها، تشترى منه عند نكاحها، لأن المهر كان يدفع لأبيها أو لأخيها، على أنه ثمن شراء. ثم تصير مملوكة لزوجها وهو سيد مطلق. وما كان لنذر المرأة أو قسمها قيمة، ما لم يؤدّه زوجها. وفي حال وفاة زوجها، فإن وريثه هو الذي يرثها كجزء من التركة، وله أن يبيعها أو يفصلها. ويلاحظ أنّ التوراة تبيح للوالد أن يبيع ابنته بيع الأرقّاء، لمن يرضى أن يتزوجها لنفسه أو يزوجها لأحد أبنائه[21].

أما بالنسبة إلى المرأة الأجنبية، فالأمر أدهى وأشدّ في العقيدة اليهودية، لأنّ تعاليم التوراة وشروحات التلمود لها، تضع المرأة الأجنبية خارج القاعدة الأدبية المتداولة في المجتمعات المدنية الراقية. إذ لا يسمح بأن يعقد عليها زواج بشري، بل هي مباحة لسفاد حيواني، وذلك «لأن المرأة غير المتحدرة من أبناء إسرائيل هي بهيمة».

فالتعاليم اليهودية تبلغ أقصى تطرفها في هذا الباب، حين تُشبّه المرأة الأجنبية بالبهيمة، وقد تجعل هذه التعاليم اليهودي في لبْس من أمره. فهل يحق له أن ينكح بهيمة؟ ونظن الأمر بالإيجاب لأنّ التوراة والتلمود منحتا «اليهودي حق التمتع بإمرأة غير مؤمنة أي غير يهودية»[22].

أرأينا إذن إلام تنتهي هذه التعاليم التلمودية والتوراتية، التي تتربّى الأجيال اليهودية عليها. إنها تشوّش الأذهان وتقودهم إلى التطرف في الرؤيا والموقف معاً في آن.

يقول اليهودي «موسى هس»: إن كل يهودي، يتمتع بمقومات نبويّة وكل يهودية تتمتع بمقومات الأم العذراء»[23].

تشويهات فكرية

ونحن لا نعجب من ترسّخ هذه العقيدة اليهودية المتطرفة في نفوس الكتاب والمفكرين والقادة السياسيين والعسكريين من يهود اليوم. ذلك لأن التوراة والتلمود جعلتا اليهود من خلال التعاليم اليهودية، يتطرفون تطرفاً يفوق حدود الخيال في التعالي على غيرهم، وقطع ما بينهم وبين الآخرين، حتى من التشارك في أصل الخلقة والمزايا البشرية العامة، إذ كل يهودي له صفات «النبي» وكل يهودية لها صفات «الأم العذراء»، كما أسلفنا.

وبحسب أقوال التوراة والتلمود، فإنّ نفوس اليهود وحدهم من بين سائر البشر،

---

(21) الدكتور أحمد الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي (فصل المرأة اليهودية)، ص 30، دار الفكر العربي، القاهرة 1963.

(22) خطر اليهودية الصهيونية، ص 60.

(23) المرجع نفسه، ص 60.

مخلوقة من نفس الله، وإن عنصرهم من عنصره، لأنهم وحدهم أبناؤه الأطهار جوهراً. وإنّ الله منحهم الصورة البشرية أصلاً، تكريماً لهم. على حين أنه خلق غيرهم (الجوييم) من طينة شيطانية أو حيوانية نجسة.

وبحسب أقوال التوراة والتلمود أيضاً لم يخلق الله (الجوييم) أي الغرباء، إلاّ لخدمة اليهود، ولم يمنحهم الصورة البشرية إلاّ بالتبعية لليهود، لكي يسهل التعامل بين الطائفتين إكراماً لليهود. إذ بغير هذا التشابه الظاهري مع اختلاف العنصرين، لا يمكن التفاهم بين طائفة السادة المختارين وطائفة العبيد المحتقرين، كما يقول التلموديون. فاليهود إذن، أطهار بحكم عنصرهم المستمد من عنصر الله، أمّا (الجوييم) فهم حيوانات وأنجاس. فهم حيوانات، عنصراً، وإن كانوا بشراً في الشكل، وأنجاس لأنّ عنصرهم الشيطاني أو الحيواني أصلاً، لا يمكن أن يكون إلاّ نجساً[24].

وتعاليم التوراة والتلمود تدعو اليهود إلى الاعتقاد بأن خيرات الأرض والعالم أجمع، منحة لهم وحدهم من الله، وأنّ كل ما يملكه الآخرون هو ملك لليهود.

أدبيات وتعاليم مشوّهة

أمّا الآداب التي يتمسّك بها اليهود، فلا يجوز أن يلتزموها إلاّ في معاملة بعضهم بعضاً. ويجب إهدارها مع الآخرين. وعليهم أن يسرقوهم ويغشّوهم ويكذبوا عليهم ويخدعوهم ويغتصبوا أموالهم ويهتكوا أعراضهم. والله لا يعاقبهم على هذه الجرائم، بل يعدّها حسنات لهم ويثيبهم عليها. وقد أشار القرآن الكريم إلى تحلّل اليهود من أداء الأمانة، كما في سورة آل عمران: ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك. ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك، إلاّ ما دمت عليه قائماً. ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل﴾. وتفسير ذلك، أي لسنا ملتزمين بمراعاة أي شريعة كريمة مع الأميين (غير اليهود)، الذين يعتبرونهم كفاراً وعباد أوثان أي (غوييم).

برأينا أن جميع أشكال التطرف الذي يصدر عن الفكر اليهودي اليوم، ليست إلاّ ثمار غرْس لئيم قديم، غرس بحماقة كبرى في نفوس أجيال اليهودية المعاصرة، من خلال قراءتهم ومطالعتهم لتعاليم التوراة والتلمود.

فأقوال جميع الزعماء اليهود خصوصاً المتطرفة منها، وقرارات ربانيهم المحفوظة في السجلات/الأرشيف الإسرائيلية، تدلّ كلها، على أن الدروس التلمودية التي يعكف اليهود في كل زمان ومكان على دراستها في مدارسهم ومجاميعهم ليلاً ونهاراً، لا غرض من ورائها إلاّ أن تكون دعوة عامة لجميع اليهود، للسير عليها في الحياة اليومية، مدنياً وعسكرياً، سياسياً واجتماعياً، تربوياً واقتصادياً.. وهذا هو قديم تعليم التوراة والتلمود للأجيال اليهودية، وهو أيضاً جديده المعاصر..

(24) محمد خليفة التونسي: **الخطر اليهودي**، دار الكتاب العربي، 1951، ص 16.